تمثلات البحر في المخيال الشعبي
دراسة في السرد التقليدي المصري

إعداد

د. أحمد بهي الدين العباسي

أستاذ مساعد- قسم اللغة العربية

كلية الآداب- جامعة حلوان

الملخص:

هذه دراسة تروم تتبع تمثلات البحر في المخيلة الشعبية وتحليلها ثقافيًّا، في أنماط سردية شعبية مصرية، وبخاصة فيما يتعلق منها بالنيل، وتحليل المتخيل الجمعي للبحر ودلالاته، وحيويتها في الموروث السردي، والقواسم المشتركة بين الأنواع الأدبية المتعلقة بالبحر، وبخاصة (النيل).

كما تتَّخذ الدِّراسة طريقها بادِئة بأسطورة مركزية في الحضارة المصرية القديمة وهي أسطورة النشأة/ الخلق المصرية المعروفة بالموسومة بأبطالها إيزيس وأوزوريس، وتحاول أن ترى وتحلل الأسطورة ودلالاتها، وبخاصة المقترنة بها بالبحر أو النيل في حكايات مصر القديمة التي اتسمت بالشعبية وتُرجِمَت إلى العربية، بعد أن عرفت رموز الكتابة الهيروغليفية، من لغات أخرى ومن أشهرها الفرنسية، وبخاصة ما نُقِل عن بلوتارخ، ومجموعة جاستون ماسبيرو، وغيرها من الدراسات التي تضمَّنَت بين حناياها إشارات إلى الإبداع القصصي في مصر القديمة، ومن بين أشهر هذه الحكايات الفلاح الفصيح، والأخوين، والملاح الغريق. لتقف أمام تساؤل هل خرجت هذه الحكايات من رحم أسطورة الخلق المصرية؟ وهل كان للبحر أو النيل بخاصة دور في إثراء الإبداع السردي عبر تنوع وظائفه في البنية السردية؟.

يمتد هذا التساؤل حالما نتصل بنوع سردي شعبي ما يزال حيًّا هو حكايات كرامات أولياء البحر، إن جاز ذلك الاصطلاح، وهي حكايات تقف على تخوم السيرة والكرامة. ويمتد أثر هذا التساؤل في بعض قصص السير الشعبية العربية، وكثير منها رُوِي في مصر ودُوِّن فيها؛ ومنها ما اتصل بمصر إما في المتن أو الرواية والتواتر، ومن بينها السيرة الهلالية، وسيرة سيف بن ذي يزن.

Summry

This study aims to trace and culturally analyze the representations of the sea in popular imagination, particularly within Egyptian folk narratives related to the Nile. It examines the collective imagination of the sea, its symbolism, and its vitality in the narrative heritage, as well as the commonalities between literary genres concerning the sea, especially the Nile.

The study begins with a central myth from ancient Egyptian civilization—the creation myth featuring Isis and Osiris. It seeks to explore the dissolution of the myth and its symbolism, especially regarding the sea or the Nile, in popular ancient Egyptian stories that were translated into Arabic after hieroglyphic symbols were deciphered. Notable translations came from languages like French, particularly those influenced by Plutarch and Gaston Maspero's works. Among the most famous stories are The Eloquent Peasant, The Tale of Two Brothers, and The Shipwrecked Sailor. The study poses the question of whether these tales originated from the Egyptian creation myth and whether the sea, or the Nile in particular, played a role in enriching narrative creativity through its various functions.

This inquiry extends to living folk narratives, such as tales of the miraculous deeds of sea saints, which exist at the intersection of hagiography and legend. The question also resonates in some Arabic folk epics, many of which were recounted and recorded in Egypt, including The Epic of Bani Hilal and The Epic of Sayf ibn Dhi Yazan.

مقدمة:

تحمل المخيلة الجمعية للإنسانية دلالات ثرية ومتناقضة للبحر في آن؛ منها الوفرة والاتساع والعطاء والمنح والقوة والخوف والرهبة، في عجائبيَّة وغرائبيَّة لافتة ومتجددة. ما مكّن البحر أن يصبح فضاء ثقافيًّا ملهمًا ومنتجًا لإبداع تقليدي جمعي وفردي يتسم بالحيوية والفرادة. وإذا كان البحر واحدًا من أشكال أفضية الماء، فإنه لطالما حملَ قدرًا من رمزيته باعتباره صنوًا للحياة والبقاء.

وللمخيلة الشعبية تصورها الخاص للبحر المقترن في الأساس بالثقافة التقليدية الرائجة في محيطها الثقافي والحضاري، والذي قد لا يتطابق بالضرورة مع المفهوم الجغرافي له. الأمر الذي يجعل له، حسب تصور المخيلة الشعبية، عجائبية تتفرد بها سماته وخصائصه، وطرائق ملاحة تميزه، وتصورات عن مخلوقات تعيش فيه، وحِرَف، وعادات ومعتقدات، وتقاليد شفاهية مقترنة به ماثلة في أغانٍ وحكايات وخرافات وأساطير مرتبطة أبدعتها قرائح الجماعات والمجتمعات التي تعيش على شواطئه والساكنة على تخومه وفي جزره.

ومن يتتبَّع دلالات البحر في المخيلة الشعبية وما يرتبط بها من أنساق ثقافية، يجدْ تنوعًا لافتًا وأنواعًا إبداعية تُميِّز كل جماعة حسب طبيعة ارتباطها به وإن غلب عليها السرد، وهو ارتباط وظيفي في الأساس خلقته الحاجة إليه، وارتباط تخيلي بلورته مرويات شفاهية دُوّن بعضها فيما بعد، وبقي الكثير منها حيًّا على ألسنة الناس. فللبحارة مروياتهم وخرافاتهم التي تصل إلى حد الاعتقاد والإيمان بها باعتبارها حقيقة لا مراء فيها، وللرحالة قصص عجائبية نقلوها أو ادعوا أنهم شاهدوها وخبروها وهم يمخرون في عبابه منتقلين بين بلد وآخر وجزيرة وأخرى وتباروا في تدوينها. أما مَن تلقى تلك المرويات سواء أكانت شفاهية أم مدونة على اختلاف صنوفها، فله كذلك تصوره للبحر الذي استقاه مما سمع وقرأ؛ حتى لو لم تتح له رؤية البحر أو خوض تجارب مماثلة لما تلقاه.

تحمل تجربة تتبع تمثلات البحر في المخيلة الشعبية مغامرة تنهل مما نُسج عن البحر من إبداع وكثرة ما كُتِب عنه؛ حيث لا يدعي بحث القيام بتقصٍّ وافٍ له لدى جماعة بشرية أو في مكان بعينه. ما يمكن قوله إنها محاولة لاستنطاق الدلالات الثقافية قدر ما يتوفر للبحث من مادة سردية تتسق ووجهته.

هدف الدراسة:

هذه دراسة تروم تتبع تمثلات البحر في المخيلة الشعبية وتحليلها ثقافيًّا، في أنماط سردية شعبية مصرية، وبخاصة فيما يتعلق منها بالنيل، وتحليل المتخيل الجمعي للبحر ودلالاته وحيويتها في الموروث السردي والقواسم المشتركة بين الأنواع الأدبية المتعلقة بالبحر، وبخاصة (النيل).

كما تتَّخذ الدراسة طريقها بادئة بأسطورة مركزية في الحضارة المصرية القديمة وهي أسطورة النشأة/ الخلق المصرية المعروفة بالموسومة بأبطالها إيزيس وأوزوريس، وتحاول أن ترى تحلل الأسطورة ودلالاتها، وبخاصة المقترنة بها بالبحر أو النيل في حكايات مصر القديمة التي اتسمت بالشعبية وتُرجمت إلى العربية، بعد أن عرفت رموز الكتابة الهيروغليفية، من لغات أخرى ومن أشهرها الفرنسية، وبخاصة ما نُقل عن بلوتارخ، ومجموعة جاستون ماسبيرو، وغيرها من الدراسات التي تضمَّنت بين حناياها إشارات إلى الإبداع القصصي في مصر القديمة، ومن بين أشهر هذه الحكايات الفلاح الفصيح، والأخوين، والملاح الغريق. لتقف أمام تساؤل هل خرجت هذه الحكايات من رحم أسطورة الخلق المصرية؟ وهل كان للبحر أو النيل بخاصة دور في إثراء الإبداع السردي عبر تنوع وظائفه في البنية السردية؟.

يمتد هذا التساؤل حالما نتصل بنوع سردي شعبي ما يزال حيًّا هو حكايات كرامات أولياء البحر، إن جاز ذلك الاصطلاح، وهي حكايات تقف على تخوم السيرة والكرامة. ويمتد أثر هذا التساؤل في بعض قصص السير الشعبية العربية، وكثير منها رُوِي في مصر ودُوِّن فيها؛ ومنها ما اتصل بمصر إما في المتن أو الرواية والتواتر، ومن بينها السيرة الهلالية، وسيرة سيف بن ذي يزن.

منهج الدراسة

قد ينهض التحليل الثقافي بإماطة اللثام عن تساؤلات البحث نظرًا لتجذر كثير من مادة البحث في الوجدان الجمعي، وارتباط بعضها بممارسات حياتية ما زالت حيَّة، فسرديات البحث ينتمي أغلبها إلى حقل الأدب الشعبي، كما أن التحليل الثقافي يتَّسم بمرونة منهجية في تتبع الأنساق الثقافية المضمرة والظاهرة في دلالات ورموز الأساطير والحكايات محل الدراسة.

يضيف التحليل الثقافي للنصوص كذلك متونًا من التفسيرات القائمة على الأنساق الثقافية، تتَّسم بتراكم واتصال بين نصوص قد تبدو في ظاهرها متوازية لا تتلاقى، بيد أن التشابكات والتداخلات تظهر مع التحليل الثقافي لأنساقها، في مسعى إلى الكشف عن القيم والدلالات المضمرة والظاهرة في ثقافة بعينها. فقراءة النص من داخله وحدها لا تكفي؛ إذ من المهم الإلمام بالسياقات الحاضنة للنَّص والمساهمة في تشكله وسيرورته.

ولا حرج في التحليل الثقافي أن يلوذ الناقد بتفعيل الذاتية في تناوله؛ حيث إن "دمج الذاتية في التحليل الثقافي ليست قليلة الأهمية إلا أنها تتضمن إحدى الميزات في البُعد الاجتماعي المهم عند التحليل؛ فالحقيقة كما هي في الواقع ظاهرة إنسانية، وإنها بالضرورة موجودة بجذورها في الذاتية الإنسانية بمستوى معين، وبينما تكون الثقافة تحليلًا واضحًا في الذاتية الإنسانية فإنها تؤثر بطريقة عميقة ومستمرة في الوعي الإنساني بطريقة جلية، ويُقدِّم هذا المنظور طريقًا واحدًا للتعامل مع عامل الذاتية في التحليل الثقافي، ويسمح من جانب آخر بالاحتفاظ على وجه التخصيص بمقولة الإنسان والعلوم الاجتماعية[١]".

١- التحليل الثقافي: تأليف جماعي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٩م مراجعة وتقديم: أحمد أبوزيد، ص٢٩٣.

كما يورد البحث تعريفًا لأبرز أنواع السرد الشعبي الضَّامة للبحر، وبخاصة النيل، وكيف أن الأنساق الثقافية تتخذ طريقًا متوغلةً في متون النوع الأدبي.

البحر بين الدلالة اللغوية والثقافية

قد تفتح الدلالات اللغوية والثقافية بابًا لفهم طبيعة تصور المخيلة الشعبية وما أوجدته من أنساق ثقافية للبحر والماء. فالأنساق التي تحملها النصوص الشعبية ليست فردانية أو مستحدثة؛ بل هي نتاج فكر جمعي أقرها واستمر في تداولها، وعمل على ضمان استمراريتها وانتشارها.

ونجد في البحث عن دلالات البحر لغةً أنه يحمل معاني الكثرة والاتساع، ففي لسان العرب "البَحْرُ: الماءُ الكثيرُ، مِلْحًا كان أَو عَذْبًا، وهو خلا البَرِّ، سمي بذلك لعُمقِهِ واتساعه، قد غلب على المِلْح حتى قَلّ في العَذْبِ، وإنما سُمِّي البحر بحرًا لسعته وانبساطه، ومنهم قولهم إن فلانًا لبحر، أي واسع المعروف"[١]. تكمن الدلالات تلك في جل المعاجم اللغوية، بيد أنه في مختار الصحاح نجد دلالات ثقافية للبحر مُضمَّنة في التعريف اللغوي، إذ وسم النهر المتسع العظيم بالبحر، وساق استعمالًا مجازيًّا له فقال "كل نهر عظيم بحر، قال عديّ:

سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضًا والسدير

يعني الفرات، ويُسمَّى الفرس الواسع الجري بَحْرًا، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام في مندوب فرس أبي طلحة (إن وجدناه لبحرًا)[٢] ". تحمل الدلالة اللغوية الكثرة والاتساع والعمق والوفرة؛ مما أهله أن يوصف به كل ما اتسع وفاض خيره وعطاؤه.

١- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير- محمد حسب الله- هاشم الشاذلي- سيد رمضان أحمد، القاهرة، طبعة دار المعارف، ١٩٨٤، الجزء الثامن، ص٢١٥-٢١٦.

٢- إسماعيل بن حماد الجوهري، مختار الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة ١٩٩٠م، ص٥٨٥.

أما الدلالات الثقافية، فهي أغزر من اللغوية، وما يرصد منها إنما يُستقى من بعض ما توفر في تحمل الدلالات الثقافية للبحر سمة الرهبة والقوة، والوفرة والاستبشار بالخير، إضافة إلى معانيه اللغوية، ولكل ثقافة تقليدية رؤيتها للبحر حسب اتصالها المباشر وغير المباشر به وعلاقتها به، وتتضح تلك الدلالات الثقافية في النصوص الإبداعية الخاصة والشعبية.

وإذا توقفنا أمام دلالات البحر في التراث المصري الذي حملته لنا المتون الإبداعية الشعبية المصرية ومن بينها السرديات، وبخاصة الأساطير والحكايات الشعبية على اختلاف أنواعها، نجد البحر يقترن في المخيلة الشعبية وفي جانب منها غير قليل بالنيل، الذي حاز موقعًا مركزيًّا في الموروث الشفاهي بعامة، وهو تصور ما يزال حيًّا في الدارجة المصرية على النيل. فيطلق على النيل بحر في لغة الحياة اليومية حتى وقتنا الراهن، وتنسحب التسمية كذلك على ما يتفرع منه من قنوات متسعة في القرى.

ولقد نال النيل قداسة تتجسد قسماتها في جُلِّ متون تراث مصر الثقافي الحي والمادي. ومن بينه الاعتقاد أنه نهر من الجنة يتدفق فيه الماء المقدس الضامن لحياة المخلوقات، فالماء لدى المصري مقدس، سواء أكان عذبًا أم مالحًا، فقد اقترن طوال رحلته في بناء حضارته بالخصب والنماء والعطاء، أيضًا حقَّق رغبته في المعرفة والاستكشاف، الأمر الذي أعان المصري القديم على الإبحار في مجرى النيل ومنابعه، واستطاع أن يمخر في عمق البحار والمحيطات تلبية لمتطلبات حضارته، فتفاعل مع الشعوب الأخرى تأثيرًا وتأثرًا. فكانت الدلالة اللغوية لكلمة بحر، التي تشي بالكثرة والاتساع والعمق والوفرة، حاضرة في وجدان المصريين في علاقتهم بالماء. فنال الماء مكانة مقدسة نقلتها إلينا متون الإبداع الأدبي الشعبي والخاص، وكذلك المعتقدات والعادات الممارسة.

تعكس هذا السرديات التقليدية المصرية احترام المصري وتقديسه لأفضية الماء بعامة وللنيل بخاصة. ولقد وردت كلمة بحر في الإبداع المصري دالة على أفضية الماء المتسعة التي عرفها المصريون وسكنوا على ضفافها، فلم تكن مقتصرة على البحرين المعروفين المتوسط والأحمر. وبقيت المخيلة الشعبية على حالها في تخيلها لكلمة بحر. وحظي النيل بنصيب وفير من هذا التصور، فنال اسم البحر منذ القدم رغم كونه نهرًا؛ لما له من مكانة متميزة في الحضارة المصرية تجلَّت فيما نسجته القريحة الإبداعية المصرية حوله من أساطير وحكايات. ولعل من اللافت أن بعضًا من متون كتب التراث التاريخي في ذكرها لمصر حاولت أن تفتش في نشأة النيل، ففاضت بأخبار يمكن أن نُطلق عليها روايات القصاص التي يمكن أن تصنف الآن قصصًا شعبيَّة مستمدة من التاريخ الشفاهي، ومن بين تلك الروايات ما ذكره أبو عبيد البكري في مصنَّفه المسالك والممالك: "فأما النيل فإن مبعثه من تحت جبل القمر عند خط الاستواء بسبع درجات ونصف من اثنتي عشرة عينًا، فيجتمع في بحيرتين كالبطائح".

فاضت السرديات الشعبية المصرية المقترنة بالبحر، والمُعبِّرة عن تصور المخيال الشعبي له، بأنساق ثقافية مصرية أصيلة، وقيم رسختها علاقة فريدة بين اليابسة الفضاء المستقر والبحر الفضاء الغرائبي الذي لا يعرف الاستقرار، كما عكست تصورات المصري لأفضية الماء وهي متمايزة في كثير من جوانبها لتصورات الحضارات والشعوب الأخرى. فلم تكن العلاقة بالبحر/ الماء يسيطر عليها خوف دائم أو النفور أو الرهبة وخشية من الهلاك، قدر ما كانت مليئة بالتقديس والإجلال والرغبة في الاتصال مع بني البشر من الحضارات التي تزامنت مع الحضارة المصرية، وتحقيقًا لرغبته في إعمار أرضه، والعبور إلى رحلته الأبدية الخالدة.

البحر في أسطورة النشوء المصرية

شغلت قضية الخلق وبدء الوجود والنشوء الفكر الإنساني منذ بدء الخليقة، وقبل أن توجد التفسيرات الحالية المرتكنة إلى أدلة علمية أو متون دينية أو روايات تاريخية، كان لكل شعب منتجه الإبداعي الأدبي المعبِّر عن تصوره لفكرة الخلق والنشوء، والتي ارتقت فيما بعد إلى فكرة البحث عن الخلود.

ولكل جماعة بشرية أساطيرها التي حاولت من خلالها تفسير الكون وما به من ظواهر تفسيرًا بدائيًّا. فكانت الأسطورة باعتبارها سردية لها قادرةً على إشباع رغبة الإنسان في تفسيره لعالمه الذي يعيش فيه ويستقر. "فقديمًا كانت الأسطورة تُمثِّل كل شيء، فهي تفسر الخلق وأصول الدين والأخلاق والحاجات الاجتماعية، وحاليًّا ننظر إلى الأسطورة على أنها الدين القديم الذي آمن به الأسلاف وتناقلته الأجيال[١]".

كثيرة هي الأساطير التي أبدعتها القريحة الإبداعية في مصر القديمة، ولقد كان لهذه الأساطير دورها المهم في صوغ اعتقاد المصري لأرضه التي يحيا فيها. وكانت علاقة المصري القديم بأرضه وثيقة ولافتة. فنسج أساطيره معبرة عن كنه هذه العلاقة وفرادتها. "ولقد تطلع أهل مصر القديمة إلى ما أحاط بهم من عناصر الوجود، واهتدوا في تطلعهم إلى نتائج ثلاث، وهي أن في الوجود عناصر كثيرة تتحكم في مصير الخلق ومصائرهم بطريق مباشر أو غير مباشر، وأنَّ كل عنصر من هذه العناصر تتكفل به قدرة ربانية تستوجب التقديس والعبادة. وأن كل عنصر فيها يترابط في بعض أمره هو وبقية العناصر، ويمكن أن يرد وإياها إلى أصل قديم".[٢]

---

١ - حسن نعمة: موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ومعجم أهم المعبودات، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤م، الجزء الأول، ص٢٦.

٢- عبد العزيز صالح: فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، مجلة المجلة، القاهرة، العدد ٢٦، فبراير ١٩٥٩، ص٣٣.

ولقد انبثق عن فلسفة الوجود المصرية نمط من الأساطير المفسِّر للكون، تترابط فيما بينها معبرة عن نسيج التنوع الإبداعي المصري. وقد كان للماء وبخاصة النيل باعتباره مقدسًا دور في رسم المصريين لأطر فلسفتهم الوجودية، لِمَا له من مكانة في صوغ الحياة وبناء الحضارة. لذا حظي النيل بتناول فريد وثري في الإبداع الشعبي، على الرغم من وجود أفضية ماء أخرى بمصر. وجاء تناول بحر النيل في أنواع أدبية بيد أن أقدمها ما ورد في أساطير الخلق/ الوجود المصرية.

والأسطورة صنف إبداعي سردي من صنوف التقاليد الشفاهية/ الأدب الشعبي الذي يعبِّر في مجمله عن رؤية الضمير الشعبي ووجدان الناس عن مظاهر الحياة بعامة، فالأدب الشعبي في جوهره تعبير إبداعي وظيفي يلبي حاجات الإنسان الذي يحيا في جماعة متصلة اتصالًا وثيقًا بمحيطها الذي تحيا فيه. وبرغم الأنواع الأدبية الشعبية تقاس بحيويتها وسيرورتها إضافة إلى سماتها النوعية التي تميزها عن صنوف الإبداع الخاص، فإن الأسطورة ما زالت تتمتع بسمة الحيوية التي تكتسيها جُلّ الأنواع الأدبية الشعبية المعروفة؛ إذ إنها كامنة في عمق الوجدان الإنساني حتى وإن لم يفصح عن ذلك بوضوح من خلال ممارسة مباشرة. فكثير من السرود الشعبية والممارسات الإنسانية لها أساس أسطوري ومشروعية شرعنتها أساطير قديمة. والأساطير الإنسانية ليست واحدة في مجملها، فهي تُصنّف وفق غاياتها التي وضعت لها وموروست من خلالها، ولعل أبرز صنف من الأساطير تلك التي ترتبط ببدايات الخلق ويُطلق عليها أساطير النشوء والخلق.

وتعد الأسطورة المصرية بعامة وأساطير الوجود المصرية بخاصة بسماتها النوعية ومضامينها واحدة من أقدم الأساطير التي صاغها العقل البشري. فالأسطورة تفسِّر كيفية عمل العقل البشري في بدايات تعرفه على العالم وتفسيره له. فكل حضارة نشأت وازدهرت لها جذورها الأسطورية والخرافية التي تأسست عليها فيما بعدها رؤيتها لذاتها وللعالم الذي تعيشه وتتصل به. فالأسطورة تحكي لنا "كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن

تكون هذه الحقيقة كلية كالكون cosmos، أو جزئية كأن تكون جزيرةً أو نوعًا من نبات أو مسلكًا يسلكه الإنسان أو مؤسسة. إذن، هي دائمًا سرد لحكاية خلق تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء بدأ وجوده".[١]

ولقد نسجت أساطير نشوء/ وجود مصرية مدونة بواكيرها الأولى في إشارات بُثَّت في متون الأهرام، وغيرها من برديات ونقوش مدونة، جاء أشهرها أسطورة الخلق المصرية إيزيس وأزوريس، التي تُعدُّ أسطورة مركزية لها أثر بالغ وممتد في الإبداع التقليدي والخاص حتى يومنا هذا، وهي تنتمي إلى أساطير النشوء، المفسرة لنشوء الأشياء، وهي مليئة بالدلالات والرموز. وهذه الأساطير "تصف الأصول الثقافية للشعوب المعنية، وهي قصص مأثورة أي إنها قصص تتناقلها الأجيال، وإن بشيء من التغيير والتصرف يجعلها مناسبة لجمهورها المعاصر".[٢]

وتعد أسطورة النشأة المصرية المقترنة بإيزيس وأوزوريس واحدة من أشهر أساطير النشأة التي صاغتها البشرية، فقد تبلورت في مرحلة مبكرة من عمر الحضارة. وتحوي هذه الأسطورة دلالات وتفسيرات لطبيعة مصر المادية وغير المادية. فهي عندما تقص علينا مولد أبطالها إيزيس ونفتيس وست وأوزوريس أبناء نوت وجب. والصراع بين أوزوريس وست، ومقدرة إيزيس على إعادة زوجها مرة أخرى إلى الحياة، وإنجابها حورس الابن، وتمكينه من اعتلاء عرش أبيه، وأضحت له أدوار متصلة بالحياة الآخرة والحياة الدنيوية من اتصال بفيضان النيل وتعليم الناس أساليب الزراعة ومواقيتها، وهي الطرائق التي ما تزال متبعة ومعمول بها في الزراعة التقليدية المصرية.

١- مرسيا إلياد: مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دمشق، درا كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩١، ص١٠.

٢- ستيفن بلجر: أساطير النشوء الإفريقية، ترجمة: موسى الحالول، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، مشروع كلمة، ٢٠١٧، ص١٤.

ربما يكون من الصعب العثور على حكايات بدائية تفسر وجود النيل ونشوئه في ثنايا ما تركه القدماء المصريون، وتحمل ما وُجِد من هذه الحكايات بذورًا للأسطورة المصرية. لو عدنا إلى تاريخ التقاء النيل الأزرق بالأبيض جيولوجيًا لوجدنا أنه في أفضل التقديرات ملايين السنوات. إذ إن ما وصلنا من الحضارة المصرية القديمة كان في مرحلة أوجها. فقليلة هي الحكايات التي تروي العقلية البدائية للمصري على أرضه. ما ورد من أساطير وحكايات جاءت في وقت كان المصريون قد احترفوا الرياضيات والفلك والهندسة، وفهموا دقائق حياة النهر ومواسمه، وبرعوا في قياس منسوبه، وتوارثها المصريون فيما بعد حتى وقت قريب، وأدركوا قيمة النهر وخبروا سبل الاستفادة منه. فكان للنيل وقت أن وردت إلينا الأساطير والقصص المشيرة إليه مكانة مقدسة استوت على عودها، تجلَّت في الموروث الإبداعي الذي كان على درجة عالية في بنائه الفني، مقارنة بغيره من إبداعات الحضارة الأخرى.

وكان للحضارة المصرية إبداعها الأسطوري المُعبِّر عن فكرة الخلق والوجود، وهو إنتاج اتسم بالغزارة، إذ تعدَّدت أساطير الخلق المصرية، بيد أن أشهرها الأسطورة التي تحكي إيزيس وأوزريس وست وحورس. وهي أسطورة حظيت بالاستمرارية والتنوع في قصصها ورواياتها بالقدر الذي لم يتح لغيرها من الأساطير المصرية الأخرى، حتى يمكن أن يقال عليها إنها أسطورة مركزية لفهم تصور الإبداع الشعبي المصري القديم لعالمه ومفردات مكانه. وتمحورت هذه الأسطورة حول فكرة الخلود، وكان النيل عنصرًا رئيسًا وفاعلًا في هذه الأسطورة، فكان له دور مهم في الحفاظ على جسد أزوريس بعد أن غدر به أخوه ست.

كان للنيل حضور قوي في الأسطورة، ففيضانه مرتبط بدموع إيزيس على زوجها أزوريس الذي غُدِرَ به من أخيهما ست، فـ" إيزيس بكت زوجها أزوريس في هذا النهر، ولما نزلت مدامعها تفجَّرت مياهه وسبَّبَت هذا الفيضان الأرضي"[١]،

١- أنطوان زكري: النيل في عهد الفراعنة والعرب، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ١٢١.

وذلك بعد أن قام ست بتقطيع جسد أزوريس إلى أشلاء، وألقاها متفرقة في نهر النيل، حسب بعض رواياتها. ومنذ ذلك ساد اعتقاد بأن إيزيس تتحكم في مجرى النيل منذ أن فاضت دموعها بغزارة على زوجها أوزير. واكتسبت بعض أسماك النيل قداسة امتاحتها من الأسطورة، بعد أن التهمت عضو أوزير الذكري رمز الخصوبة، ليمتلك النهر وحده فعل الإخصاب الممنوح من الآلهة. فإيزيس تمكنت من جمع أشلاء أوزير عدا عضوه الذكري في مسعاها إلى إعادته للحياة.

وربما لهذا السبب امتلكت إيزيس في أسطورة الخلق المصرية مقدرة إعادة الحياة إلى الموتى. وكأنها امتاحت من النيل مقدرته على إعادة الحياة للأرض الجدباء المقفرة وقت أن يفيض، ففي كل فيضان ثمة بعث جديد للحياة. كما أن النيل حمل التابوت الذي يضم جسد أزوريس، وهو المكان الذي اجتمعت فيه الآلهة، وفق الرواية الفينيقية للأسطورة؛ من أجل أن تتخذ قرارها في الفصل بين ست وحورس. وعلى الرغم من الرموز التي امتلكتها الأسطورة، فإن النيل كان قاسمًا مشتركًا فيها.

فقد كانت هذه الأسطورة مفسرة لفيضان النيل، ومفسرة أيضًا في رواياتها المصرية القديمة إلى ظاهرة النسيء في السنة المصرية القديمة التي ما زال معمولًا بها حتى اليوم. إضافة إلى أنها تعكس قدرًا من قيم الحضارة المصرية التي تشكلت واستوت، ومنحت المرأة خصوصية الخصب والحياة.

كما وحَّدَت الأسطورة أوزير بالنيل نفسه، فهو الذي علَّم الناس طرائق الزراعة، واقترن في المخيلة الشعبية بالنيل، "ومع أن أوزير صار مع الماء، بل مع ينابيع الماء العظيمة نفسًا واحدة، فإنه من الواضح أن وظيفة خاصة للماء هي التي امتزج بها، فالماء مصدرًا للخصب وبوصفه مانحًا للحياة هو الذي وحد به أوزير، وهو الذي يسبغ الحياة على التربة، ومن ثم فإن أوزير كان يتصل بالتربة اتصالًا وثيقًا. وقد أيد هذا الرأي وأكثر منه ما جاء في أنشودة من عهد القرن الثاني عشر ق.م؛ إذ إنها لم تقتصر على توحيد أوزير بالتربة؛ بل وحدته هو والأرض كلها. تقول الأنشودة: أما أنت فإن النيل ينبع من عرق يديك، وأنك تنفث الهواء الذي في حلقومك إلى أنوف الناس فوهبت القداسة لما تعيش عليه الناس".[١]

١- هنري بريستد: فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٤، ص ١٢٥- ١٢٦.

أيام النسيء

تركت هذه الأسطورة أثرًا في الوجدان الشعبي حتى امتد أثرها إلى كثير من صنوف الإبداع الشعبي والخاص، كما أثرت في فهم المصريين لتفاصيل ممارسات حياتهم اليومية، وبخاصة في طقوس الزراعة ومعارفها وما يقترن بها من معتقدات، إذ هي التي فسَّرت الاختلاف بين السنة المصرية والسنة الميلادية؛ إذ الفرق بينهما خمسة أيام هي أيام النسيء، وحظيت هذه الأسطورة بإضافات وتحويرات بالغة يمكن تلمسها بيسر، إذ لا تكاد تتطابق رغم انتشارها الواسع. وذلك قبل أن تتحلل إلى حكايات شعبية.

بدأت العلاقة بين الأسطورة والنيل منذ اللحظة الأولى التي عُرِفَت فيها طبيعة السنة المصرية، التي ليست سنة شمسية ولا قمرية، فهي سنة نجمية مقترنة بالزراعة التي أوجدها النيل ماء وطيناً. ففسَّرت الأسطورة سمة السنة المصرية، ففي بداية الأسطورة "أن إلهة السماء نوت خانت زوجها مع إله الأرض سِب، وعلم إله الشمس رع بهذه الخيانة، فغضب وصبَّ عليها لعنته، وقضى بألا تتخلص من حملها بأي شهر من شهور السنة، وتوسَّل الإله توت بالحيلة لإنقاذ حبيبته، واستطاع أن يأخذ من القمر الجزء الثاني والسبعين من كلٍّ يوم، فوفَّر بذلك خمسة أيام كاملة أضافها إلى السنة المصرية التي كانت تتألف من ثلاثمائة وستين يومًا، وهكذا استُنْقِذَت نوت من لعنة رع وأنجبت في اليوم الأول من أيام النسيء أوزوريس، وفي الثاني حورس الكبير، وفي الثالث ست، وفي الرابع إيزيس، وفي الخامس نفتيس"[١]. إن بداية الأسطورة هي التفسير الأسطوري لظاهرة أيام النسيء في السنة المصرية تلك السنة التي تبلورت وفق قوانين الزراعة، ومواسم فيضان النيل.

اتسعت حلقات هذه الأسطورة في فترات وعصور متلاحقة، إذ نجد الرواية الفينيقية للأسطورة ولحقتها روايات أخرى؛ منها ما اتصل بأزوريس في البدء، "فقد

١- عبد الحميد يونس، معجم الفولكلور، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠، ص١٥٠،١٥١.

اكتُشِفَت أجزاء من قصة أوزير على أوراق بردي متنوعة، وبعض كتابات مدونة على الأحجار، ومع ذلك فإن الرواية الأشمل دُوِّنَت بعد ذلك بفترة بعيدة في عام ١٠٠/م على يد الكاتب اليوناني بلوتارك Plutarch"[١]. بإيزيس وحدها، ومنها ما قام على حورس. وربما لم تشهد أسطورة تتعلق بالنشوء أو الخلق مثلما كان لأسطورة الخلق المصرية.

الماء/ النيل من الأسطورة إلى الحكاية الشعبية

تحلَّلَت أسطورة إيزيس في الحكايات الشعبية المصرية المدونة، وبخاصة تلك التي وردت عن مصر القديمة، أو التي ما زالت حيَّة تُروى. إذ نجد في حكايات مصر القديمة الشعبية تصورات للبحر مقترنة بنهر النيل مشوبة بالتقديس ذاته الذي رسَّخته أسطورة الخلق المصرية. كما ورد في هذه الحكايات تصورات للبحر يتداخل فيها البحر بالنيل، وهي حكاية الملاح الغريق، ووجدت مدونة في بردية اكتُشِفَت عام ١٨٨١م، وهي محفوظة الآن في متحف الأرميتاج بلنينجراد، سان بطرس بورج، بروسيا[٢].

ويقترن في هذه البردية تصور البحر بالنيل؛ حيث ورد في الحكاية الشعبية المصرية القديمة أن أحداء أمراء ملك مصر أرسل أحد أمرائه في بعثة إلى المناجم من أجل أن يأتي لملك مصر آنذاك بذهبها، بيد أنه لم يُلفح، فجلس حزيناً يائسًا، وهو في رحلة العودة رآه أحد بحارته، فأخذ يُسَرِّي عنه فروى حكاية جرت له مع النيل/ البحر، في جزيرة كانت مجهولة يقوم على حراستها ثعبان ضخم، وكيف عاش على هذه الجزيرة مع الثعبان حتى لاحت في الأفق سفينة التحق بها وغادر الجزيرة، وكان في مغادرته موت الثعبان.

١- دون ناردو: الأساطير المصرية، ترجمة: أحمد السرساوي، مراجعة: علاء الدين شاهين، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١، ص٤٢.

٢- انظر: جاستون ماسبيرو: حكاية الملاح الغريق، حكايات شعبية فرعونية، ترجمة: فاطمة محمود، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مصريات، ٢٠٠٨، ص١٧٧.

تشير اليابسة التي كونها البحر، الماثلة في الجزيرة، أنها كانت حاضنة للملاح الذي لجأ إليها وكانت تُسمَّى (كا)، والثعبان يحمى مَن ينتوي العمل والحياة. فعندما حكى له الملاح قصته بصدق مبديًا رغبته في العودة إلى مصر مرة أخرى. حينها قدَّم له الثعبان كنوزًا يهديها إلى ملك مصر حتى لا يعود إليه خالي الوفاض. واستحسن الأمير حكايته. فحكاية الجزيرة هي إعادة للحياة التي أسهم فيها النهر، وكانت أثمن ما عاد به الأمير من رحلته حاملًا إياها إلى الملك الذي أمر بتدوين الحكاية وحفظها في خزانته الملكية.

حتى إن القارئ لا يستطيع بسهولة أن يقف على الحاجز الرقيق بينها والأسطورة. احتفظت الحكايات الشعبية المصرية القديمة بتصور الأساطير للنيل، وهي إعادة الحياة من جديد. وهل كانت الحكاية التي رواها الملاح للأمير هي الذهب الذي سيعود به إلى الملك. أم أنها نواة لسيرة عجائبية قامت على البحث عن كتاب النيل وهي سيرة سيف بن ذي يزن؟

تحلل الأسطورة كذلك في واحدة من أشهر الحكايات التي وردت في أدب مصر القديمة، وهي حكاية (الأخوين) "وهي تحكي عن شقيقين يعيشان معًا، يكبر أحدهما الآخر، وتعيش معهما زوجة الأخ البكري. أما الأخ الأصغر يعيش كخادم يرعى الماشية ويحرث الحقل، ويعمل بإخلاص في رعاية الأبقار والأغنام. ويحدث أن راودته زوجة أخيه الأكبر عن نفسه، فلم يستجب لها. فكادت له عند أخيه ظلمًا وزورًا مدعية أنه مَن قام بمراودتها عن نفسها، وادعت أنَّها تمنَّعت متعللة بأنها أمه وأخته. واستشاط الأخ الأكبر غضبًا وأصرَّ أن ينتقم من أخيه الأصغر، بيد أن بقرته أنبأته بمقدم أخيه، ففرَّ هاربًا وتوسَّل إلى الإله رع أن ينجيه، فاستجاب إلى ابتهالاته، وفقر النهر بينه وبين أخيه الأكبر ومُلِئ النهر بالتماسيح فلم يقو على الوصول إليه. وهنا اختصم الأخ الأكبر أخاه الأصغر إلى (رع حور آختي)، وما أن أشرقت شمس اليوم التالي، حتى وجه الأخ اليافع الصغير كلامه إلى شقيقه الأصغر، ولامه أنه لم ينصت إليه، وحكى له ما قامت به زوجته، وإمعانًا في إظهار التفاني والإخلاص

لأخيه أخرج من جيبه سكيناً يستخدم في قطع البوص، وقطع عضوه الذكري، وألقاه في نهر النيل، فالتهمته سمكة كبيرة وفرَّت. ثم أغمي عليه لفوره. حينها أحس الأخ الكبير بالمصاب، وأخذ يلعن قلبه، ولم يكن ليقدر على الوصول لأخيه لوجود التماسيح. ومضى الأخ الصغير يقول لأخيه: أنت لم تتذكر صنيعًا طيبًا مما فعلته لأجلك، قم برعاية مواشيك واحرث أرضك بنفسك فلن أقيم بمكان أنت فيه ثانية. وأخبره أنه سوف يسحر قلبه ويضعه فوق قمة زهرة السنط. وإذا اقتطفت السنط وسقط القلب فعليك الحضور للبحث عنه. وأوصاه ألا يمل من البحث ولو بعد مرور سبع سنوات، وإذا وجده يضعه في آنية ماء بارد حينها سيحيا ثانية. رجع الأخ الكبير إلى بيته حزيناً غاضبًا وقتل زوجته ورمى بها إلى الكلاب.

وعاش الأخ الأصغر في وادي السنط، ومنحته الآلهة بناء على رغبة رع زوجة جميلة شابة، حتى لا يعيش وحيدًا. وحذرها من الاقتراب فإنه لن يقوى على إنقاذها. وذات مرة خرج بيتيو إلى الصيد ورأت النهر يقترب منها مخاطبًا شجرة السنط أنه سيبتلعها. ولما جرت أمامه انتزع فقط خصلة من شعرها. حينها فاض النهر وذهب بخصلة الشعر، إلى مَن؟ إلى النسوة اللواتي تقمن بغسل ملابس الفرعون. ففاح عبير الخصلة، وفُتِنَ بها الفرعون، واستدعى السحرة وأولي المشورة وعَلِمَ أن صاحبتها إحدى بنات رع، وأمر بإحضارها، ومن اهتدى منهم إلى وادي السنط قتله (بيتيو)، عدا واحدًا ليعود إلى الفرعون ويُعْلِمه بأمره. ولما علم بالأمر أرسل في إحضار المرأة، وأمر بقطع شجرة السنط فسقط قلب بيتيو. تنبه وقتها الأخ الأكبر (أنوبو) إلى تعكر جرة الجعة وفق نبوءة أخيه، فهرول إلى وادي السنط ليجد أخاه مسجى ميتًا. وانتفض يبحث عن قلب أخيه فوجده في كرمة عنب صغيرة، ووضعه حسب وصيته في ماء بارد، ورجع قلبه إلى مكانه. وتعانقا وأخبره أنه سيتحوَّل إلى ثور ويركبه ويذهب إلى فرعون عساه يستعيد زوجته. ولما تمكَّن من الوصول إلى زوجته، أخبرت الفرعون أن يذبح الثور الذي أعجب به ابتهاجًا بعرسهما. ولما ذبح الثور سقط قطرتان من دمع أنبتتا شجرتا سنط ذات قدر من الجمال أعجب بهما الملك، وذات يوم وهو يتفقد شجرة السنط حينها تجسد بيتيو مرة

أخرى وحكى للملك كل ما حدث. لكن المرأة رغبت أن يقطع الملك شجر السنط وأمر بذلك، وبينما يقطع العمال الشجر إذ تطايرت قطعة خشبية من شجرة السنط لتستقر في جوف المرأة وحملت حينها بطفل. ووضعت طفلًا فرح به الملك وتمت مناداته وريثًا للعرش وسمي (كوش). وبعد سنوات تولَّى الوريث العرش، وعاد بيتيو ليختصم المرأة أمام الملك وترافع ضدها. وتبوأ بيتيو الحكم وأحضر أخاه وخلفه في الحكم إلى أن مات.

تحمل هذه الحكاية– التي وردت بروايات متنوعة– عددًا من الدلالات الثقافية والمضمرة، ومن بينها قيمة الأسرة والأخوة والرباط المقدس الذي يربط بين أفرادها في مصر القديمة، وهي دلالات حية متجذرة ممارستها حتى يومنا الراهن، كما أنها تبين عن علاقة المصري زارع الأرض بأرضه وماشيته، وطرائق الحياة في مصر القديمة التي ما تزال حية في واقعنا. أما الحكاية فيمكن القول إنها نبتة من أسطورة النشوء إيزيس وأوزير، سرد تحلل من رحمها، فالنيل فيها أتى فرقانًا بين الحق والباطل، كما هو حال بين بيتيو/ بطل الحكاية وبطش أخيه الأكبر. وهو الذي حمل خصلة الشعر وألقاها إلى الملك حتى تستمر دورة الحياة، فما كان لبيتيو أن يظل هو وزوجته دون أن يُنجب منها. الإنجاب هو استمرارية للحياة. وحتى لما أنجبت كانت من بيتيو والنيل معًا.

الحكاية بدأت مع ثلاثة، الأخوين وامرأة، مثلما جاءت الأسطورة في البدء مع إيزيس وأوزريس وست. فرباط الأخوة بين الأسطورة والحكاية هو مفتتح الحكاية. والأخوة هنا تعني الإخلاص والتماهي.

ثم يحدث أن يبدأ الشقاق/ المحنة وهي فعل أساسي في الأسطورة والحكاية وفيما بعد في السيرة، فتتخذ الحكاية أبطالًا من بني البشر، وإن كانوا مقابلًا للأبطال المقدسين في الأسطورة. فلا يكون ذكر لهم إلا بشكل عارض في تجلي الإله. كما تتمثل أزوريس في شجرة السنط؛ حيث وضع بيتيو قلبه أعلى شجرة سنط في الوادي، وهي الشجرة التي نبتت من جسد أزوريس، ثم يعمد بيتيو إلى قطع عضوه

الذكري وإلقائه في النيل، ماء النيل مقدس، وحري به أن يحوي أعضاء البشر، وبخاصة أعضاء الخصوبة (استمرارية الحياة)، الأسطورة أكدت ذلك، أما الفعل وإن كان واحدًا ففي الحكاية عساه كان يرمي إلى عدالة النهر أو اليقين في تحقيق النهر للعدالة التي افتقدها بيتيو.

الحيلة والدهاء طمعا في استرداد الحق المغتصب، كانتا وسيلة في الحكاية كما كانت في الأسطورة، فإيزيس في الأسطورة تمتَّعَت بالدهاء والحيلة والسحر، وتمكنت من انتزاع حق ابنتها المغتصب من ست، وهكذا احتال بيتيو ولنفسه بأن تمَثَّل في صورة ثور ثم في شجرة سنط.

النيل قاسم مشترك بين الأسطورة والحكاية، يفيض ليأتي بخصلة شعر من ابنة الإله رع يهديها للملك، لتحدث أمور كثيرة. خصلة من شعر الفتاة ذات نسب إلهي، تقابلها دموع إيزيس ابنه رع لتكون مصدر فيضان النيل.

أولياء البحر

يمكن للأساطير أن تتحلَّل إلى حكايات شعبية، منها ما هو سائر ومنها ما هو مرتبط بالعقيدة الجمعية، وتُعَد حكايات الكرامات الشعبية المقترنة بالأولياء والقديسين نوعًا أدبيًّا شعبيًّا ربما تحلل عن أساطير قديمة، منها ما هو معلوم ومنها ما لم نحط به علمًا. تحمل حكايات الكرامات، الكثير من الرموز والمعتقدات الشعبية، وهذه الحكاية كثيرة ومتنوعة ومنتشرة ومفسرة، وأغلبها لا يروى إلى سياقات محددة، فالكرامة "تشرب من المعتقدات الشعبية، فتجتاف الأسطورة، والخرافة والمثل الشعبي واللغز، وتحتضن رواسب معتقدات قديمة، وتصورات طقوس واحتفالات وموضوعات سحيقة ورموزًا وظواهر طبيعية ومواسم فصلية[١]".

١- علي زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والرمز- القطاع اللا واعي في الذات العربية، لبنان، دار الأندلس، الطبعة الثانية، ص١٩.

واحتفت العقلية الجمعية في إبداعها بحكايات الكرامة، ووظَّنَتْهَا في لُبِّ معتقداتها الشعبية، فحَلَّت موضع الأسطورة في بحثها عن أنساق الحياة من وجهة ذات طابع مقدس.

وتكون عند زيارة مقام الولي أو الاحتفاء بمولده في الاحتفالية التقليدية المسماة بالموالد، أو بين أتباعه ومريديه، فحكاية الكرامة هي نمط من الحكاية الشعبية، لها طبيعتها الخاصة، وسياقاتها التقليدية المتعارف عليها.

لم يتوقف تحلل الأسطورة المقترنة بالنيل وبخاصة أسطورة الخلق المصرية "إيزيس" عند مرحلة محددة، أو عن أنواع قديمة، بل ظلَّ أثرها متداخلًا وعميقًا في الحكايات والسرديات الشعبية التي تحمل معتقدات وعادات متوارثة وممارسة بين عموم المصريين. ربما تفيض كثير من حكايات كرامات أولياء النهر بآثار أسطورة الخلق المصرية، وتتسرب في عناصر أم شخصيات أو مضامين.

تركت الأسطورة المصرية المرتبطة بفيضان النيل أثرها في الحكايات الشعبية المتوارثة، ولما كان فيضان النيل يعني هبة الحياة لمصر أرضًا وناسًا، فقد تعلقت به ممارسات الحياة وما اقترن بها من عادات ومعتقدات وتقاليد شفاهية. وبالطبع كان لأولياء النهر دور في فيضان النيل نقلته حكايات كراماتهم. فتذكر حكاية الكرامة عن ولي صالح بمدينة الأقصر، جبريل بن عبد الرحمن الأقصري، "شيخ مشهور بالكرامات، معروف بالمكاشفات. صحب الشيخ عبد الرحيم القنائي، وكان الشيخ أبو الحجاج الأقصري يُكثر زيارته، وذكر له الشيخ عبد الغفار في الوحيد كرامات وخوارق؛ منها: "أنه تقاصر النيل في بضع السنين إلى أن خُشي فواته في السنة، وحصل في النفوس القحط، فأخبر الشيخ عبد الغفار بن محمد الأقصري المذكور قال: بينما أنا ذات ليلة نائمًا في بيتي، فلم أشعر نصف الليل إلا والباب يطرق، فقلت: مَن هذا؟ فقال جبريل، قال: فنزلتُ وفتحتُ الباب فرأيتُ الشيخ جبريل، فقلال: امش بنا إلى ساحل البحر، إلى تحت جميزة، كانت هناك، قال: فخلع ثيابه وأعطانيها، ونزل في الماء وأَبْعد إلى أن غطّاه الماء، وأبْطأ عليّ كثيرًا حتى

خشيت عليه من الموت. قال: ثم طلع والماء يتبعه في أقدامه وهو بين يديه نور، وهو يُسرع في المشي والماء يتبعه إلى أن غشي الأرض، فلبس ثيابه وسرتُ معه إلى بيته، فقلتُ له: يا سيدي، بالله عليك، ما هذه الحكاية، فقال: والله يا ولدي كنتُ في بيتي فسمعتُ قائلًا يقول لي: يا جبريل، قم فاخرج إلى البحر وانغمس فيه، وأقسم على الله تعالى بهذا الاسم يطلع النيل[١].

إعادة الحياة فعل متجذر في الحكاية، وهي لا تعني في المعتقد الشعبي الحي إحياء الموتى، وإنما ضمان استمرارية الحياة. وماء النيل وفيضانه عنصر أساسي في بعث الحياة. ويبدو أن فيضان النيل في الوعي الجمعي مرتبط بفعل مقدس أو إرادة علوية تفوق قدرات البشر العادية، فهو مرتبط بدموع إيزيس في بحثها الدؤوب عن جسد أوزير، أو بكرامة من ولي صالح.

ثمة حكايات كرامة نجد فيها بحر النيل، وتقترن بفعل إعادة الحياة للولي الصالح سيدي إبراهيم الدسوقي، ومستقر ضريحه في مدينة تطل على فرع للنيل هي مدينة دسوق، ويختص سيدي إبراهيم الدسوقي بحكايات كرامات كثيرة منتشرة بين أتباعه ومريديه وقاطني المحافظة التي تضم مقامه، تعبِّر عن مكانته العلمية ونفوذه الإيماني في طريق التصوف. ومن بين الحكايات التي نتلمس فيها أثر أسطورة الخلق المصرية، حكاية عن امرأة تستنجد به لما ابتلع تمساح النيل ابنها الصغير. فيُحكى "أن صبيًّا اختطفه التمساح، فذهبت أم الصبي إلى حضرة الشيخ، فقالت: يا سيدي إبراهيم ابني أخذه التمساح، فأمر شقيقه السيد الفولي بعد أن أعطاه عصاه أن يذهب إلى النيل، ويقول يا معشر التماسيح من ابتلع صبيًا فليخرج به، فخرج التمساح ولفظ الصبي حيًّا، فذهب بالتمساح والصبي إلى الشيخ، فقال الشيخ للتمساح مُت، فمات، وإلى وقتنا هذا توجد فقرة من فقرات ذلك التمساح معلقة في ضريح سيدي إبراهيم الدسوقي. ثم أمر الشيخ رضي الله عنه أخاه السيد الفولي أن يسوق التماسيح خارج

١- أحمد فريد المزيدي: الحجج البينات في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الممات، قدم له: جودة محمد أبو اليزيد المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008، ص٢٣٩.

القطر (يقصد به هنا دلتا مصر)، فساقهم إلى أن وصل إلى مدينة المنيا في الصعيد، فوافته المنية هناك، وبذلك سميت مدينة المنيا بمنية الفولي. وإلى وقتنا هذا لا تستطيع التماسيح إن هي تسربت إلى نيل مصر أن تتعدى مدينة المنيا إلى داخل الوجه البحري"[١].

تنتمي هذه الحكاية إلى صنف حكايات كرامات الأولياء والصالحين، برغم ما يكتنفها من خوارق أو مسحة أسطورية، فهي تستقر في أنفس رواتها باعتبارها تاريخاً حقيقيًّا للولي، باقية في الذاكرة الحية للجماعة الشعبية المعتقدة في الولي الصالح، وإن لم يعاينوا وقائعها بأنفسهم. باعتبارها جزءًا مهمًّا من تاريخهم. ومن ناحية تصنيفها النوعي فهي تنتمي إلى صنف حكايات الخوارق المفسرة.

برغم تواتر كثير من الكرامات المنسوبة لسيدي إبراهيم الدسوقي فإن هذه الحكايات تعد شائعة بين العامة، وقلَّ أن نجد لها ذكرًا في متون مدونات رسمية. الحكاية هنا تقترن بالأسطورة أيضًا في كونها حكاية خلق ونشوء، النهر والأم يتنازعان الطفل، يبتلع حيوان النهر استمرارية الحياة، وتعديه المرأة بإصرارها واتخاذها طريق الكرامة، لتستمر الحياة. ومن أراد إيقاف استمراريتها يموت.

أضف إلى ذلك أن التمساح شأنه في ابتلاع الصبي شأن التابوت الذي حمل جسد أوزير، واستغاثت امرأة بالولي الصالح هنا الذي أعاده جاء من خلال استغاثة امرأة به، وكأنها إيزيس. النيل في الحكايات كائن، يحمل التابوت ويحوي التمساح. والتمساح في ابتلاعه للطفل فإنه يعتدي على الحق في الحياة، فجزاؤه جزاء ست. والطفل الذي عاد للحياة هو امتداد حورس.

١- هذه الحكاية سائرة بين مريدي الولي الصالح سيدي إبراهيم الدسوقي، وتعد واحدة من أشهر كراماته التي يرويها العامة وأتباع طريقته. وقد ورد نصها في كتاب أصدرته الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية احتفاءً بيوم مولده، القاهرة، ١٣٩٠هـ، ص١٢.

تحلل الأسطورة في سيرة الماء

أتى ذكر الماء مركزيًّا في بعض السير الشعبية العربية، وبخاصة التي تكاملت في مصر، ومن أبرزها سيرة بني هلال، التي تعد السيرة الشعبية التي ما تزال تُنْشَد في مصر على ألسنة شعرائها المتجولين. تسرد السيرة مولد أبطالها، حينما تحلَّقَت نسوة القبيلة الحوامل حول بركة الماء، التي تجتمع حولها الطيور، أملًا في تفرس صفات طيور يكون عليها أبناؤهن. فوقع بصر خضرة الشريفة على طائر أسود أرهبَ من قوته بقية الطير، فتمنت أن تلد غلامًا مثله في قوته وبأسه. فولدت غلامًا أسودَ ليس من لون أبيه وأمه، فاتُّهِمَت فيه خضرة، على إثر ذلك خرجت منبوذة من القبيلة.

الحكاية هنا تتمحور حول الأب/ رزق بن نايل، والأم/ خضرة الشريفة، والابن/ أبوزيد الهلالي، الذي مرَّ برحلة اغتراب جراء سواد لونه، حتى عاد إلى القبيلة واحدًا من فرسانها المبرزين؛ لينال مكانته وموقعه في قبيلته. وهي حكاية تقارب في مضمونها ما حدث لحورس الذي تمكن من أن يستعيد ملكه الذي اغتصبه ست، وذلك بدعم من أمه إيزيس، وهو الأمر الذي حدث مع أبي زيد، والماء حاضر في الأسطورة والسيرة.

قد يبين تحلل الخلق المصرية في السير المدونة التي لم تعد تُروى، ومن أبرزها سيرة سيف بن ذي يزن، ويكنى راويها براوي سيرة الأمصار وسائق النيل من أرض الحبشة والسودان إلى هذه الأمصار (مصر)[١]، يمكن أن يطلق عليها سيرة الماء. سيف بن ذي يزن هو بشارة جريان نهر النيل، صاحب خال أخضر يجري النيل من الحبشة إلى الأمصار، حسب تعبير السيرة، ومنوط به تحقيق دعوة نوح، وذلك عندما أنبأ الوزير يثرب الملك ذي يزن أنه "وجد في الكتب القديمة والملاحم العظيمة أنه لا بد لملك من ملوك التبابعة الكرام أن يكون على يديه إنفاذ دعوة نوح- عليه السلام- ويظهر دين الإسلام، ويأمر الناس بعبادة الملك العلام.

١- انظر سيرة سيف بن ذي يزن، المجلد الأول، ص٣٢.

تعمر في أيامه مصر كلها ... ويجري بها النيل المبارك
وإقليمها يبقى مدى الدهر عامرا ... خادمًا ويسكنها عرب تصاحب أعجمًا

إن تحقيق دعوة نوح مرهونة بالنيل، وهي دعوة لها طابعها الديني التوحيدي، لا تنفك عن جذور الأسطورة المصرية التي قدست النهر وأسبغت قدسية على أبطالها. تنبت هذه الجذور في سيرة مليئة بالخارق والعجيب. فسيف بن ذي يزن تجل لصورة حورس وأوزير معًا. فهو من نسل ملكي رفيع، أسبغ الله على أبية العدول عن هدم البيت الحرام، وبشر بالإسلام، واجتاز من الصعاب والمحن ما يجعله مؤهلًا أن ينال رتبة الوصول إلى كتاب النيل وتحقيق النبوءة.

بيد أن السيرة برغم أنها متماسة مع أسطورة النيل المصرية القديمة، فإنها تروم تقديم سردية شعبية أخرى لنشأة النيل، تضاف إلى تلك التي حاولت أن تقدمها الأسطورة.

تتماس مع متون ذات طابع تاريخي ككتاب الممالك والمسلك، في إشارته إلى أن مصدر النيل جبل القمر، ولم يحدد الكتاب البلد الذي فيه، وفي سيرة سيف بن ذي يزن إشارة إلى الأمر نفسه، إلا أنه موجود في بلاد الحبشة.

النيل في السيرة لن يجريه سيف بن ذي يزن إلا حال حصوله على كتاب النيل المقدس، الذي هو في السيرة "معبود أهل قمرون، ولم يعرفوا لهم معبودًا سواه، واعتقادهم أنه يجلب لهم النار ويُجري المياه ويزرعون زرعهم على الأرض والماء يسقيه، فمن ذلك يعتقدون أن هذا هو المعبود عندهم، وكلما يستهل الهلال يدخلون عليه ويسجدون قدامه دون رب الأرباب الملك التواب الذي أنزل القطر من الغمام والسحاب وخلق آدم من تراب[١]". مَن يمتلك هذا الكتاب يعتقد أنه ستخضع له المخلوقات.

١- سيرة سيف بن ذي يزن، المجلد الأول، ص٨٣.

النيل في الوجدان الشعبي نهر مقدس، وفي السيرة مرهون بكتاب مقدس، الكتاب والماء سرَّان مقدسان، هبة من الله، والكتاب في السيرة كان مقدسًا معبودًا، وهو إشارة إلى العلم والمعرفة، لذا يُحتفظ بالكتاب في مكان حصين، فهو "موضوع في صندوق من الخشب الأبنوس الأسود، ومصفح عليه بصفائح الذهب الأحمر، والصندوق موضوع في تابوت من الخشب الساج، ومصفح بصفائح فضة، وموضوع عليه مقام عالٍ من الخشب، وعليه ستارة من الحرير الملون، ومبني عليه قبة محكمة من الحجر الرخام الأبيض، وبابها من الحديد الصيني، وأقفالها من الحديد الفولاذ، ومفاتيح تلك الأقفال عند الملك قمرون لا يأمن عليه أحدًا غيره، ولا يفتح القبة أحد سواه[١]".

الصندوق الخشبي صان جسد أوزير المقدس، وهو الذي يحفظ ويصون النيل. إن الاحتفاظ بالكتب تيمة مكررة في السرديات العربية كليلة ودمنة الذي ظل مصونًا في خزانة ملكية بالهند قبل أن ينتقل إلى بلاد فارس؛ حيث إن "دبشليم لما استقر له الملك وسقط عنه النظر في أمور الرعية والخوف من الأعداء ومحاربتهم إذ قد كفاه بيدبا ذلك، صرف همته إلى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده، فأحب أن يكون في الخزانة كتاب باسمه[٢]". ولما أتم بيدبا الكتاب سأل الملك أن يصان الكتاب حتى لا يخرج من بلاد الهند، فقال: "أسأل الملك أن يأمر بالاحتياط عليه فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند فتتناوله أهل فارس إذا علموا به فيذهب. والآن لا يخرج من بيت الحكمة[٣]".

١- سيرة سيف بن ذي يزن، الجزء الأول ص ٨٣، ٨٤.

٢- علي بن الشاه، مقدمة كتاب كليلة ودمنة، تنقيح وشرح الأب لويس شيخو، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٢م، ص١٤.

٣- السابق ص١٨.

كذلك الأمر في ألف ليلة وليلة؛ حيث أمر الملك شهريار، حينما أنهت شهرزاد حكاياتها، أن تُدَوَّن حكايات شهرزاد في كتاب ويُحفظ في الخزانة الملكية؛ خشية أن تضيع، فهو يمثل ذاكرة الجماعة وصون وجودها، ولا يفتح الصندوق بعامة إلا بأمر ملكي.

وهكذا مَن يحصل على الكتاب يجب أن يكون مؤهلًا على تعاطي ما فيه وتحقيقه.

خاتمة:

حملت الذاكرة الجمعية تصورات كثيرة للماء والبحر، وعبَّرت عنها بأدوات إبداعية كان للسرد الشعبي نصيب مهم منها، وبتتبع السرد الشعبي المتعلق بالبحر وبخاصة النيل، نجد أنها تتعالق فيما بينها لتمثل سردية كبرى يمكن رؤيتها إن غصنا في بينتها ومضامينها. وتحلل الأنواع السردية تلك لا يعني انتفاء نوع أو تقادمه، إنها توجد في خطوط متوازية. هكذا يبدو الأمر فيما يتعلق بسرديات البحر في الأدب الشعبي المصري. إذ قد منحت أسطورة إيزيس وأوزير- ما جاء بعدها من سرديات- قدرًا من المادة الإبداعية الخام التي استقرت في ضمير الجماعة الشعبية، وشكلتها في حكايات شعبية لها طابعها الديني والدنيوي. إنها مقترنة بحياة مبدعيها، تؤدي وظائفها المنوطة بها. ويتضح هذا في سرديات الكرامات التي أشير إليها، وكذلك في سيرة من سيرنا العربية، وهي سيرة سيف بن ذي يزن؛ ما يشي أن السرد الجمعي عندما يتحلَّل في أنواع أدبية إنما هو تعبير عن اتصاله وحيويته.

الحواشي والمراجع

١. أحمد فريد المزيدي: الحجج البينات في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الممات، قدم له: جودة محمد أبو اليزيد المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008.

٢. إسماعيل بن حماد الجوهري، مختار الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة ١٩٩٠م.

٣. أنطوان زكري: النيل في عهد الفراعنة والعرب، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

٤. التحليل الثقافي: تأليف جماعي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٩م .

٥. جاستون ماسبيرو: حكايات شعبية فرعونية، ترجمة: فاطمة محمود، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مصريات، ٢٠٠٨.

٦. حسن نعمة: موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ومعجم أهم المعبودات، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤م، الجزء الأول.

٧. دون ناردو: الأساطير المصرية، ترجمة: أحمد السرساوي، مراجعة: علاء الدين شاهين، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١.

٨. ستيفن بلجر: أساطير النشوء الإفريقية، ترجمة: موسى الحالول، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، مشروع كلمة، ٢٠١٧.

٩. سيرة سيف بن ذي يزن، دار صادر ببيروت، دت.

١٠. عبد الحميد يونس، معجم الفولكلور، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

١١. عبد العزيز صالح: فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، مجلة المجلة، القاهرة، العدد ٢٦، فبراير ١٩٥٩.

١٢. علي بن الشاه، مقدمة كتاب كليلة ودمنة، تنقيح وشرح الأب لويس شيخو، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٢م.

١٣. علي زيعور: الكرامة الصوفية والأسطورة والرمز- القطاع اللا واعي في الذات العربية، لبنان، دار الأندلس، الطبعة الثانية.
١٤. مرسيا إلياد: مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دمشق، درا كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩١.
١٥. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير- محمد حسب الله- هاشم الشاذلي- سيد رمضان أحمد، القاهرة، طبعة دار المعارف، ١٩٨٤.
١٦. هنري بريستد: فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٤م.